الطقوس الجنائزية في الديانة المندائية
Funeral rites in the Mandaean religion

Assistant Professor

Dr. Eman Lafta Hussein

الاستاذ المساعد

د. إيمان لفته حسين

الخلاصة

الديانة المندائية هي من أقدم الديانات التوحيدية التي ظهرت في الشرق الأدنى القديم تحديداً في بلاد الرافدين منذ آلاف السنين، حيث يؤمنون بأن كتابهم المقدس (الكنزاربا) يتضمن الصحف الاولى التي نزلت على سيدنا آدم (عليه السلام) ويسمى أيضاً بـ(سيدرا آدم)، وقد تواجدوا منذ القدم في جنوب بلاد الرافدين وتكلموا باللغة الآرامية بلهجتها الشرقية وإن معتقداتهم المندائية قد برزت في بابل وورثوا الكثير من الميتولوجيا البابلية ولكنهم في نفس الوقت قد تأثروا بالأقوام التي جاورتهم وعايشتهم ولاسيما اليهود والمسيح والمجوس والزرادشتيون، وقد انفردوا بطقوس جنائزية واسعة ومتشعبة ذات أصور سومرية بابلية، وكانت شعيرة الغطس بالماء (التعميد) من أهم تلك الشعائر التي لا يمكن القيام بطقوس (الموت، والولادة، والزواج) بدونها لانها أساس الطهارة، وكان سبب تشعب تلك الطقوس الجنائزية هو لكي تنعم الروح بالراحة والاستقرار في عالم النور. وحرمت الكتب المقدس للمندائيين النياح والبكاء، والصراخ والعويل، واللطم على الخدود والأجساد، وتمزيق الثياب وغيرها من مظاهر السخط والجزع والاعتراض على الموت، لأنه حكم الله ومشيئته، وعلى الجميع قبول ذلك والرضا به.

الكلمات المفتاحية

الصابئة المندائيين – كنزاريا – الناصرائيون – التعميد او المصبتة – الطقوس المندائية – دعاء الرحمة – المندلتا .

Abstract :

Mandaean religion is one of the oldest monotheistic religions that have appeared in the ancient Near East, especially in Mesopotamia thousands of years ago. They believe that their holy book, (KINZA Arba) , includes the first newspapers that descended on Adam (PBM) , also called Adam (PBM) . Since ancient times in the south of the land of the Rafidain, they spoke Aramaic in their Eastern dialect and their baptismal beliefs emerged in Babylon and inherited much of the Babylonian mythology, but at the same time they were influenced by other communities that surrounded them and their lives, especially Jews, Christ, Magi and Zoroastrians. The most important rituals that cannot be performed rituals (death) and birth and marriage without them because it is the basis of purity, and the reason for the complexity of these funerary rituals is to enjoy the spirit of joy , stability in the world of light, and deprived the books , the cry , the wailing and the slapping on the cheeks and the bodies, the tearing of the garments and other manifestations of discontent and alarm and objection to death, for it is the rule of God and the will of all and accept it and satisfaction.

key words

Sabean-Mandaeans - Kanzaria - Nazareths - baptism or Al-Masbah - Mandaean rituals - prayers for mercy - Mendeles.

المقدمة:

لعبت الميثولوجيا دوراً هاماً في تشكيل الديانة المندائية، وذلك من خلال البحث عنها سر نشأة الكون والوجود الإنساني، والصراع الدائم بين الخير والشر، ومن ثم كيفية إقامة الطقوس والشعائر التي تكرم الإله، والطقوس الجنائزية الخاصة بالميت، والتي تساعده في حياته الثانية، ومن هنا تكمن أهمية الموضوع في دراسة الطقوس الجنائزية في الديانة المندائية من خلال ما ورد من نصوص في كتبهم المقدسة ولا سيما كتاب (كنزا ربا).

فالهدف من هذه الدراسة، هو التوصل إلى الأصول الخاصة بالطقوس والشعار الجنائزية لدى المندائيين، والوقوف على ما ترافق تلك الطقوس من اجراءات تتعلق بالموت والدفن انطلاقاً من مبادئ وردت في قانون ديانتهم، والتي ارتكزت على فكرة رفض الإنسان لفكرة الموت البائد، واعتقاده بوجود حياة أخرى بعد الموت.

وقد اتبعنا في ذلك منهجاً قائم على المنهج العلمي التحليلي الذي يوثق بالمصادر العلمية، والمراجع، وما صدر عن مؤرخي الأديان بخصوص موضوع البحث، مع الاستعانة ببعض النصوص وتحليلها واستنباط بعض المفاهيم منها.

وقسم قسم البحث إلى ثلاثة نقاط رئيسة، جاءت الأولى لبيان أصل المندائيين والتسميات التي اطلقت عليهم والثانية ارتكزت على دراسة فكرة الموت في الفكر المندائي وجاءت النقطة الثالثة لتكون الأساس في البحث وهي ما قبل الموت، وطقوس ما بعد الموت، وطقوس الدفن.

اعتمدنا في ذلك على مجموعة من المصادر العربية والمعربة، والاجنبية، ويأتي في مقدمتها الكتاب المقدس للمندائيين وهو (كنزا ربا)، الكتاب الأول بطبعته الثالثة لسنة ٢٠٠١، وكذلك كتاب (مفاهيم صابئة مندائية تاريخ، دين، لغة) لتاجية المراني، فضلاً عن (الصابئة المندائيون) لـ الليدي دراوور المختصة بالشؤون المندائية، و(اصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، لمؤلفه عزيز سباهي، ومصادر اخرى لا مجال لذكرها.

وقد خرجت هذه الدراسة بمجموعة من الحقائق العلمية والنتائج التي ذكرت في خاتمة البحث.

وعسى أن اكون قد وفقت في تحقيق أهداف البحث، ومن الله التوفيق.

أولاً: الأصل والتسمية:

اختلف الباحثون في دراساتهم حول تاريخ الديانة المندائية ومنابعها الأولى وأصول معتقداتهم الدينية وأفكارهم، ذلك بسبب اختلافهم حول البلد الذي ظهرت فيه الديانة المندائية، والمتابع التي استقت منها افكارها، وتعاليمها وطقوسها الدينية، لأنها كانت تنتشر في أكثر من منطقة فيما تعرف بمناطق الشرق الأدنى القديم.[i]

ولكن ما تسير من الشواهد التاريخية، وما توصي به القرائن المستخلصة من الآداب المندائية، وتراثهم الديني ومقارنة ذلك بآداب الأديان الأخرى في الشرق القديم، تدفع الجميع الى حصر الأصول والمنابع الأولى للديانة المندائية ضمن اتجاهين وهما: أن يكونوا قد ظهروا أصلاً في بلاد ما بين النهرين في وسط بابلي-آرامي، متأثرين بالأقليات اليهودية التي كانت هناك. وبالأفكار والمعتقدات الفارسية المجاورة لمناطقهم، ثم انتشروا شمالاً في مرحلة ما، وكونوا وسطاً خاصاً التجأت إليه جماعات كانت تؤمن بمعتقدات قريبة من معتقداتهم تخلصاً من الاضطهاد الذي وقع عليهم. والاتجاه الثاني هو: انهم ظهروا في فلسطين في غرب أو شرق نهر الأردن وبلوروا افكارهم وطقوسهم هناك ونقلوها فيما بعد إلى جنوب بلاد ما بين النهرين، وهناك دونوها بأبجديتهم الخاصة وادخلوا عليها بعض التعديلات بحكم تفاعلهم مع البيئة ذات الأصل البابلي، والمجاورة والمتفاعلة مع بلاد فارس، وما تولد فيها من أفكار ونظم دينية.[ii]

وسواء هاجروا من ناحية فلسطين، أو انهم من سكان بلاد ما بين النهرين الاصليين، فأنه يمكن القول أنهم تركزوا في مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم مخلفين آثارهم وتراثهم الديني هناك، ومن أهم مناطق تواجدهم هي مملكة دست ميسان.[iii] أو (مملكة الكرخة) حيث تم العثور على قطع نقدية تحمل نقوشاً وفيها صورة لملك رافديني، وفي ظهرها كتابات مندائية تم تحديد تاريخها بحوالي (١٥٠ م)[iv]. وقد أطلق عليها المندائيون اسم (ميس يانة) أي (الماء الآسن) (الماء الممزوج بمخلفات بقايا نباتات الاهوار)[v]. وكذلك منطقة الطيب (طيب ماثة) وهي من مدن بابل السفلى (الجنوبية) وتسمى أيام السومريين باسم (كايكر) وتقع على ضفاف نهر دجلة إذ وجدت فيها الكثير من الكتب المندائية[vi]. فضلاً عن البطائح التي هي أرض واسعة تقع بين واسط والبصرة، وقد وجد فيها اواني فخارية مكتوب عليها باللغة المندائية يرجع تاريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامي، وكذلك وجدت بعض المسكوكات تحمل كتابات مندائية[vii]. وفي الجزيرة العربية وعلى نهر (بلباس) أحد روافد نهر الفرات، كان مركز لدويلة (فدان ارام) الارامية حيث كان اكثر سكانها من المندائيين[viii]. وجدت الكثير من الآثار والشواهد ذات النفوس المكتوبة بالحروف المندائية[ix].

وقد اطلقت على المندائيين عدة تسميات منها (المندائيون) وهي التسمية المشتقة من كلمة (مندا) الآرامية وتعني (المعرفة بالدين والحياة)[x]، وإن أصل كلمة (مندا) هو (ما – دا) السومرية التي تعني (مسكن أو أرض العباد) ومنها جاءت كلمة (مندي – بيت العبادة المندائي)، وفي اللغة الأكدية ظهرت على شكل (مندو – mindo) وهم (القوم شديدي الإيمان)[xi]، وقد أطلقت عليهم أيضاً تسمية (الناصرائيون) وتعني المتبصرين، أو العارفين بأسرار الحياة[xii]، كما اطلقت عليهم تسمية (الصابئة) من الجذر الآرامي (صبا) و(المغتسلة) التي تعني (غسل) وجاءت هاتين التسميتين بسبب كثرة اغتسالهم بالماء على اعتبار أن (التعميد) أو (المصبتة) هو الطقس الرئيسي في شعائر المندائيين وهو عملياً (التطهير) عن طريق الاغتسال بالماء الجاري على اعتبار أن الماء هو سائل الحياة يمنح الجسم العافية ويقيه من قوى الموت، ومعنى (التعميد) هو التجديد والولادة الجديدة[xiii]. فضلاً عن تسميات أخرى أطلقت عليهم في كتبهم الدينية منها: (أبني نهورا) أي (ابناء النور)، وكذلك (اخشيطي) أي اصحاب الحق أو ابناء العهد، وهناك تسمية (شلماني) من (شلم – سلم) وهي تسمية آرامية مندائية تعني (المسالم)[xiv].

وعلى هذا الاساس فإن المندائيين يرجعون بأصولهم إلى شعب آرامي عراقي قديم، ولغتهم هي اللغة الآرامية الشرقية المتأثرة كثيراً بالأكدية[xv]، وهم اذن طائفة دينية وليس شعباً أو أمة، وأصلهم من الشرق من بلاد ما بين النهرين مهد الحضارات وقد عاشوا في تلك المنطقة فأثروا فيها، وتأثروا بها ثم انتشرت فلسفتهم الدينية إلى شمال الحجاز، وفلسطين، والأردن، وحران، والخابور وفي مواقع أخرى في أعالي الفرات، كما استقرت جماعة منهم في مصر أيضاً، حاملين معهم لواء التوحيد أينما حلوا، وكانوا من الأقوام القديمة التي بشرت بالتوحيد إن لم تكن اقدمها[xvi].

وإن تراثهم الرافديني البابلي تفاعل مع التراث الفارسي بعد سقوط بابل سنة (٥٣٩ ق.م) وخصوصاً مع المعتقدات الزرادشتية والفرثية، واليهودية، والمسيحية الموجودة في وادي الرافدين. وهم على هذا الاساس فإن أصولهم متجذرة في وادي الرافدين، وهم خميرة الطبقات الحضارية التي مرت ببلاد الرافدين؛ كما انهم تفاعلوا مع الشعوب الأخرى المهاجرة، أو

المجاورة لبلاد الرافدين مما أكسبهم طقوس وشعائر وعادات وتقاليد انفردوا بها ولا سيما الطقوس الخاصة بالموت وعالم ما بعد الموت[xvii].

أما تسميتهم بـ(الصابئين) فهي تسمية غير معروفة في كتبهم الدينية، فلا بد أذن قد تكون جاءت من الأقوام التي جاورتهم (حولهم) لأنهم يسمون انفسهم في كتبهم باسم (مندائي)[xviii]. وإذا علمنا أن الشعار الرئيسي لديهم هو الارتماس في الماء الجاري (التعميد) وإن طهارتهم البومية تمارس عن طريق هذه الشعيرة التي تسمى (مصبتة)[xix]. فإن التسمية (صابئي) ماخوذة من الفعل (صبا) الآرامي ومعناه (يرتمس) و(يتعمد)[xx] فهم يقولون في صيغة الأذان عندهم: "إنش صابي بمصبته شلمى" بمعنى (كل من يتعمد بالمعمودية يسلم) ويقولون في التعميد (صبيينا بمصبته اد بهرام رية) بمعنى (تعمدنا بعماد إبراهيم الكبير)[xxi].

وكان للمندائيين مجموعة من الكتب الدينية المقدسة يتناول كل منها جزء معين من الشعائر والطقوس الدينية المندائية، وأبرز هذه الكتب هو كتاب (كنز ربا) أو (سدرة ربا) ويعني (الكتاب العظيم أو كتاب آدم)، وهو أكبر المخطوطات المندائية (الشكل رقم ١) وينقسم إلى قسمين، الأول، ويبدأ تسلسل صفحاته من اليمين إلى اليسار لذلك سُمي (بالقسم اليمين) ويتضمن مواعظ وأساطير تتعلق بخلق الكون والإنسان والأرض، أما الثاني ويدعى (سيدرا دنشمتا) أي (كتاب الأرواح) وهو يقتصر على التراتيل المتعلقة بالموت وصعود الروح إلى عالم النور ويسمى (كنز اليسار) لأن تسلسل صفحاته من اليسار إلى اليمين[xxii]. وقد ترجم من قبل ماثيو نوربيرغ (Matthew Norberg) السويدي عام ١٨١٣م. ثم ظهرت له ترجمات وتعليقات لاحقة. فضلاً عن كتب دينية أخرى منها: (دراشة اديهيا) وهي مجموعة تتناول شؤون النبي يحيى و(سيدرة ادنشماثة) أي طقس التعميد وسر المعمودية المقدس و(اسر ملواشة) ويتعلق بأمور الفلك والتنجيم، و(تفسير يغره) وهو ديوان يعالج المعنى الداخلي للوجبات الطقسية وكذلك (ايناني) ويتضمن الطهارة الصغرى أي الوضوء وبعض الأدعية، فضلاً عن دواوين ومخطوطات أخرى تتعلق بالرقي والتعاويذ وإقامة الصلوات ... إلخ[xxiii].

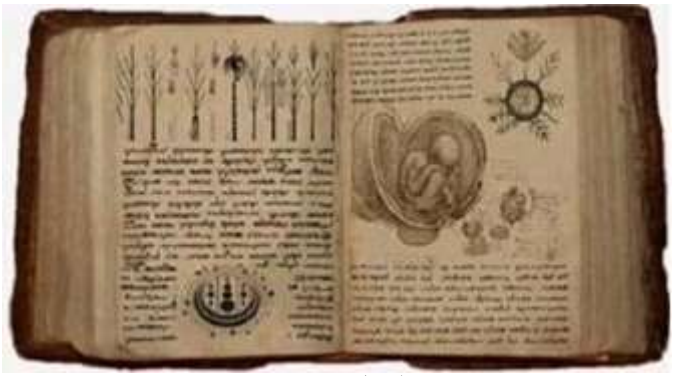

الشكل رقم (١)

ومما هو جدير بالذكر إن النسخ القديمة من هذه الكتب والمخطوطات نادرة الوجود وذلك بسبب أن المندائيين كانوا يطمرون كتبهم في أوقات الازمات والأخطار في الأرض، كما أن أكثرهم كانوا يعيشون في أكواخ من القصب توقد فيها النيران شتاءً وغالباً ما كانت تنشب فيها الحرائق، فضلاً عن إن التقاليد المندائية تعتبر ذبح الحيوانات هو تدمير للحياة لذلك فإن الجلد غير طاهر.

وهذا يعني إن هذه الكتب المقدسة لم تدون على الجلد، بل دونت على الورق والمعدن والحجر فهي بذلك سهلة التلف[xxiv].

ثانياً: الموت في الفكر المندائي:

تعبر الديانة المندائية عن الروح بثلاث كلمات:

نفس (Nafs)، نشمثة (Nisimta)، ومانا (Mana)، وهي ذات الأصل الفارسي، وكلمة نفس فهي تعبر عن ذات الشخص والروح (الروهة) هي الروح الحيوية مقر الرغبات والشهوات[xxv].

وقد كان هاجس الحياة والموت يسيطر على عقول المندائيين، لكن الموت شغلهم أكثر من الحياة، وذلك رغبة منهم في معرفة مصيرهم بعد الموت (الحياة الأخرى)، وفكرة الموت لديهم هو الذهاب بعيداً إلى حيث لا نرى، ولا نُرى فيتحسسون الأزل مثلما فعلت الأقوام التي سبقتهم[xxvi].

ويعتقد المندائيون ان الجسد هو وعاء الروح، وإنها نسمة من الله تعالى، وإنها لابد من ان تعود إليه[xxvii]، إذ تقول بعض الادعية المندائية: (في اليوم الآخر، ستعود النفوس التي انبعثت منه إليه، بعد إن تفارق اجسادها، ستغتبط به، ستعانقه، وسترتفع إلى الملأ الأعلى، أي دار البقاء)[xxviii]. كما يعتقد أن هناك عالم مثالي يسمونه (مشوني كشطة – Kusta msunia) معزول عن هذه الدنيا، غير أرضي، يوجد فيه النظير لكل شيء، في العالم المادي يسكنه (انوش اثرا – Anus Uthra)[xxix] وهنا يوجد اثنان من كل شيء في الدنيا (الواقع ويقابله المثالي) وإن لكل شخص على هذه الأرض شبيه (دموثه – Dumta) في

عالم (المشوني كشطة) وعند الموت يفارق الإنسان هذه الأرض جسده الترابي ويلتحق بالجسم الاثيري الشبيه وينتحل الجسم السماوي شبيه[xxx].

وقد جاء في كتاب المندائيين المقدس (كنزا ربا) إن الموت هو نصيب كل نفس حية: "قال الحي وهو مستو على عرشه بين أنواره: ليكن الموت من نصيب أهل الدنيا". وورد كذلك في ثناياه أن: الموت هو حق وعاقبة تدرك كل نفس حية فالموت هو حق محتوم على كل إنسان لا مهرب منه ولا مفر. ولا يجوز الاعتراض على الموت لأن ذلك يعادل ستة وستين خطيئة ولأن الاعتراض على الموت هو الاعتراض على مشيئة الله وقضاءه وقدره: "نحن نسميه الحق، وانتم تسمونه الموت، كل من لعنه وضع أمام نفسه ستة وستين مفثراً". وكذلك "يا أصفيائي، لا تعترضوا على أمر ربكم، وكونوا صالحين"[xxxi].

كما اشارت آيات الكتاب (كنزا ربا): إن الموت ما هو إلا تحرير للنفوس من الأجساد، وإن جميع الاجساد تفنى، والكل يهلك ويموت في هذه الدنيا، وجميع النفوس تتحرر وترجع إلى خالقها حينها سوف تحاسب جميعها على إيمانها وافعالها واعمالها "كل من يولد يموت، وكل ما يصنع بالايدي يفسد، والعالم كله يفنى، فأين سر الألوهية التي فيه إن كنتم تنتظرون، إن عكازتكم يوم الحساب اعمالكم التي عليها تتوكأون، فأنظروا إلى ماذا تستندون".

وقد حرم الكتاب المقدس للمندائيين كل مظاهر كل مظاهر السخط والاعتراض على الموت ونهت من الجزع والضجر والندب، والنياح والعويل، والصراخ، واللطم على الاجساد، وقلع الشعر، وتمزيق الثياب، وبينت آيات الكتاب إن المؤمنين بالله وحكمه عليهم قبول حكمة والرضا بقضاءه وقدره، وبينت النصوص إن النفوس كلما طالت اعمارها في هذه الدنيا، كلما زادت خطاياها، فمن احيوا موتاهم الذين فارقت نفوسهم هذه الدنيا الفانية ليس لهم إلا أن يسألوا الله الرحمة ومغفرة الخطايا، والذنوب لموتاهم من خلال قراءة الادعية، والتراتيل، وصلوات الترحم والغفران، واعطاء الصدقات، وإقامة طقوس وشعائر المراحم، وطلب السكينة والاستقرار في الحياة الآخرة[xxxii]. إذ جاء: "لا تبكوا على موتاكم، ولا تقيموا عليهم الاحزان"، إن من مزق ثيابه على ميت فقد دنسها، ومن قلع شعرة على ميت فسيربط بجبل الظلام بحبل لا يبيد، كلما طالت اعماركم زادت خطاياكم، فلا تحزنوا على النفس الروحية (نشماتة) إذا فارقت الحياة،...، من أحب موتاه فيطلب لانفسهم الرحمة، وأقيموا عليها الصلاة، والتسبيح، واقرأوا الابتهالات، واقيموا طلب السكينة والمغفرة، والرحمة من أهلها، عندئذ يسير الضياء امامها، ويأتي النور وراءها، ورسل الحي عن يمينها، وملائكة النور عن شمالها، فتنجوا من المطهرات، ومن مراجل النار"[xxxiii].

واعتاد المندائيين على قراءة ما يسمى بـ(ارواها ادهيي – أي دعاء الرحمة – رحمة الحي) على موتاهم لطلب الرحمة والمغفرة حيث يقولون: "باسماء الحي العظيم، الائتلاف ورحمة الحي وغفران الخطايا إليه، لذي النفس الروحية الصاعدة (يذكر اسم المتوفي)، وغفران الخطايا إلينا، بوجود الحي (هيئي)، بوجود المولى (ماري)، بوجود المدرك: (منذا اذ هيئي)"[xxxiv].

ثالثاً: الطقوس الجنائزية:

لقد حرص المندائيين على تطهير الجسد والنفس كليهما قبل الموت، لاعتقادهم أن الروح إذا فارقت الجسد بعد الموت فإن عملية التطهير تصبح غير لازمة وعلى هذا الأساس فإن هناك طقوس وإجراءات تقام قبل الوفاة، وطقوس وإجراءات تقام بعد التأكد من الوفاة، وعليه لابد من تقسيم هذه الطقوس إلى ثلاثة مراحل ليسهل علينا فهمها وإدراكها وهي:

أ- طقوس ما قبل الموت.

ب- طقوس ما بعد الموت.

ج- طقوس الدفن.

أ- طقوس ما قبل الموت:

يراقب المريض الذي على وشك الموت مراقبة دقيقة ليلاً، ونهاراً لئلا يموت وهو بملابسه الاعتيادية، وتهيئأ له ملابس دينية جديدة (رستة) وتكون طويلة كافية لتغطية القدمين، وعندما تقترب المنية من المريض، ويبلغ اليأس، ويطلب من أحد (الحلالية الأربعة)[xxxv] أن يجمع أكليلاً من الآس حسب الطريقة المعتاد عليها، ويقوم بإجراءات الطهارة من خلال لبسه الأكليل بخنصر يديه اليمنى[xxxvi]، ثم يتلوا الدعاء الذي ينص: "حمداً لك ربي، لتمنح الحق والصحة باسم الحياة الأولى العظمى، ومن عوالم الأنوار السامية التي هي فوق كل شيء، لتكن لي الصحة والطهارة والقوة والسلامة والنطق والسمع وسرور القلب وغفران الخطايا (يسمي نفسه هو) من أجلي أنا الذي أقام صلاته وعبادته، ومن أجل روح (يذكر اسم المريض) صاحب هذه المسخثة[xxxvii]، ولتغفر خطايا أسلافنا ومعلمينا وإخواننا وأخوتنا ممن غادر أرواحهم ابدانهم ..."[xxxviii] انظر الشكل رقم (٢).

الشكل رقم (٢)

ثم يتلوا أربعة أدعية أخرى، ثم يعيد الدعاء أعلاه (دعاء الرحمة) مرتين، مرة لنفسه ومرة باسم الشخص المريض ويده اليمنى تستند إلى رأسه بعد ذلك ينهض ويدعوا أدعية أخرى[xxxix] ثم ينزع التاج من على رأسه وينزع الإكليل من خنصره، ويقبل (التاج إحدى وستين مرة) ويعيد الشيء نفسه على أكليل الآس للرجل المحتضر معبداً صلواته مرة بعد مرة وهو يرفعه إلى عينيه بالتناوب (إحدى وستين مرة) قائلاً: "كشطة اسيخ، تأغي كشطة اسيخ ماري" ومعناه (ليمنحك الحق الصحة يا تاجي ويمنحك الحق الصحة يا ماري)[xl].

ويأخذ الحلالي الإكليل ويودعه لدى أهل المحتضر ليكون جاهزاً للاستعمال عند الضرورة، أي حين تقترب المنية. بعد ذلك يتقدم الحلالية الأربعة ويحضرون الماء من النهر ثم تخلع ملابس المحتضر ويغسل ثلاثة مرات من رأسه إلى اخمص قدميه، ثم يضعونه فوق فراش نظيف ويكون رأسه مواجهاً للنجم القطبي (أي إلى الشمال الذي يعد عند المندائيين مصدر النور والمعرفة والشفاء وكذلك في صلاتهم وفي نومهم يتوجهون إلى النجم القطبي – الشمال).[xli]

ثم يلبسونه ملابس دينية جديدة، مع عدم عقد الزنار ويضعون إكليل الآس على رأسه، فإذا زهقت روحه يطبقون جفنية دلالة على ذلك ويعقدون الزنار، ويضعون الإكليل في مكانها تحت العمامة وأوراقها تتدلى فوق الصدغ الأيسر، وتغطى القدمان، ولا يتم الدفن إلا بعد مرور ثلاث ساعات (وهو عرف للتأكد من الوفاة وعدمها)[xlii].

أما إذا مات الشخص قتلاً، أو فجأة (سكتة قلبية) فإنه لا يُغسل لأن الغسل هو فقط لمن به روح، حسب اعتقادهم إن الروح طاهرة فإن فارقت الجسم أصبح الجسد كالطين المجبول لا يطهره الماء، وفي هذه الحالة يقوم (الكاهن الخاص – كنزه فره) بواجب التكفير، لأن الموت الفجائي يجعل الميت في عداد من مات بدون رسوم الجنازة. لكنهم حالياً اخذوا يتسامحون في هذا الأمر فيغسلون الميت ويقمون له ما يسمى بـ(مسختة) للتكفير عنه، وهو ترحيم ديني خاص.[xliii]

ب- طقوس ما بعد الموت:

بعد موت المحتضر والتأكد من ذلك تبدأ طقوس أخرى جنائزية، تبدأ بتجمع (الحلالية الأربعة) الرئيس وزملاءه الثلاثة، وواحد من الكهنة فيقومون أولاً بارتداء ملابسهم الدينية، ويشترط في هؤلاء الموكلة إليهم عملية الدفن أن لا يكون منهم عمياً، أو صماً، أو اعرجاً، أو أي عاهة جسمية أخرى، كما ويجب على رئيس الحلالية أن يكون متزوجاً وأباً لمجموعة أطفال كشرط أساسي[xliv]. ويقوم الرئيس بتطهير جميع أدوات الشعائر، محضراً معه الكتب المقدسة ملفوفة بقماش أبيض، ويجب ان يدس الرئيس بحزامه سكيناً من الحديد لا قبضة لها (سكين دولة) تتدلى من سلسلة متصلة في حلقة يضعها الرئيس في خنصر يده اليمنى، ويشترط أن ينقش على (سكين الدولة) التي تستعمل في مراسيم الدفن كلمات: "كاوريل شليهة" بمعنى (جبرائيل الرسول)، ثم تيلو الكاهن صلاة خاصة تسمى "الرهمى" أي (صلاة الرحمة)[xlv].

وفي هذه الأثناء تقوم النساء بتحضير ما يسمى بـ(اللوفاني) أي (الوجبة الطقسية أو الطعام الطقسي – العشاء الرباني) والمعنى أو الهدف من هذه الوجبة هو اعتقادهم إن ارواح المتوفين، وارواح الاحياء متحدة في قداس هذا الطعام، والقوة التي يمنحها هذا الطعام والشراب هي لكليهما الاحياء في الدنيا والأموات الذين غادروها إلى العالم الآخر، ويجب أن يراقب الميت باستمرار ويوضع بجانبه إناء فيه ماء يجدد باستمرار وقطعة من الحجر، ومصباح يشتعل فوق كرسي أو منضدة، حتى لا يخيم الظلام على الغرفة، وأحياناً الشمس نفسها تكفل بوجود النور، وهذه العناصر الثلاثة (النار – الحجر – الماء) يجب ان تبقى

حيث وضعت الى اليوم الثالث بعد الوفاة. أي إلى حين مغادرة الروح للجسد نهائياً في اليوم الثالث، لأنهم يعتقدون أن الشخص عندما يموت تبقى روخة تحوم حول الجسد لمدة ثلاثة أيام بعدها تغادر نهائياً[xlvi].

ج- طقوس الدفن

يقوم المندائيون يصنع لوازم دفن موتاهم بأيدهم من مواد بسيطة متوفرة في بيئتهم الطبيعية، وتقتصر مراسيم الدفن على (الحلالية) وجمع من عامة الناس (سوادية) وكاهن واحد فقط. يهيئ القصب والبردي من قبل ذوي المتوفي ويغسل طقسياً وينظف، بعد ذلك يقوم الكاهن أو أحد الحلالية ببناء ما يسمى بـ(المندلتا) التي هي بناية ثلاثية على شكل حفرة بيضوية تقام في ساحة دار المتوفي توضع فيها كمية من القصب بشكل عمودي ويتلو نصبها طقس ديني كامل، وتبقى في مكانها ولا تفتح إلا في ختام اليوم الثالث للوفاة، والغرض من طقس (المندلتا) هو منع أرواح الموتى التي تبقى تحوم في الفضاء لمدة ثلاثة أيام من إلحاق الأذى بالأحياء، أو أن تكون (المندلتا) بيت للنفس التي تتردد على سكنها طول هذه المدة، بعدها تفتح وترمى لأن الروح قد بدأت رحلتها إلى عالم الانوار[xlvii].

وفي أثناء طقس (المندلتا) يقف الجميع متوجهين الى النجم القطبي ويتلو الكاهن ما يأتي: "باسم الحياة العظمى، لوقة – مشاركة العشاء الرباني – ورواهة – سبب التنفس ثانية أي الانبعاث – وانبعاث الحياة وغفران الخطايا تكون لروح (ذكر اسم المتوفي) صاحب هذه المسخثة لتغفر خطاياه"[xlviii].

وبعد ذلك يشد جميع الحلالية لثمهم حول افواههم وانوفهم ويضعون أي زهر أو ورد ذي رائحة (كالورد الجوري أو الآس أو القرنفل) لكي لا يصل إليهم رائحة الموت، ثم يلف المتوفي في (بانية) وهي حصيرة من القصب تصنع على قدر حجم المتوفي مكونة من البردي وحبال سعف النخيل وتلف هذه الحبال حول البانية، بحيث يستطيع بعدها (الحلالية) الاربعة حمل الجنازة إلى القبر وهم ماسكون تلك الحبال من سعف النخيل، ثم يحضروا الكرسي أو التابوت المصنوع من القصب على أصول جريد النخيل، حيث تشكل أصول الجريد مقابض للنعش ويوضع بجانب الجثة، ويجلس ثلاثة من الحلالية باتجاه مشرق الشمس، بينما يتجه رئيس الحلالية قبالهم، أي مواجهاً الشمس الغاربة[xlix].

ويحمل الحلالية الاربعة وهم حفاة الأقدام مثل جميع الذين سيشتركون بمراسيم الدفن، يحملون الجثمان ويضعونه فوق البانية ثم ينقلونه مع البانية الى التابوت، وأخيراً تثبت الجثة بالحبال التي بقيت مرتخية في البانية، إذ يحملون الجثة على أكتافهم ويكون الرئيس من الجهة اليمنى عند رأس الجثة، وأثناء التحرك يحاولون دون تعرض الجثة لتبديل اتجاهها وهو الشمال دائماً، بحيث إذا ما انتصب الميت فإنه يواجه النجم القطبي[l].

يتجه الموكب الجنائزي مجتازاً الساحة، وعلى حاملي الجثة تخطي (المندلتة) ثم يتوقفون عندها لينحني رئيس الحلالية على المندلتة ويملط اعمدتها الثلاثة بالطين، ثم يختمها بـ(سكين دولة) ويتجهون بعد ذلك نحو المقبرة التي يكون موقعها باتجاه الشمال في فضاء مفتوح وخارج المدن. وعند الوصول إليها يحفر (الحلالي) الرئيس بالمعول ثلاث مرات في التربة وهو يتلو الادعية، ويتلو كذلك ما يسمى بـ(مسختة) غفران الخطايا لروح المتوفي[li].

بعد ذلك يأخذ الحلالي الرئيس وهو متجه نحو الشمال معولاً ويذر بعض التراب على الجثة بعد وضعها في القبر ثلاثة مرات مردداً في كل مرة: "باسم الحياة العظمى، لتكن الحياة وغفران الخطايا من نصيب فلان (اسم المتوفي) صاحب هذه المسخثة ولتغفر لي خطاياي". ثم يملئ الآخرون الحفرة بالتراب ليصبح القبر على شكل رابية صغيرة، ثم ينحني الرئيس، ويبلل القبر من جوانبه الاربعة، ويختم الطين المتكون بختم (سكين دولة) مبتدأ من جهة رأس الميت ثم يعود بعد ثلاثة أيام ليزيل هذه الاختام لانتفاء الحاجة إليها[lii]، ويعود السبب في ذلك هو أنهم يختمون الطين بـ(سكين دولة) الذي هو وسيلة من وسائل الحماية ضد الكائنات الظلامية الشريرة، وبعد ثلاثة أيام من الدفن تكون النفس قد بدأت بالارتقاء إلى عالم الأنوار. فيزال الطين كونه لم يعد موجب.

بعد ذلك يذهب الحلالية إلى النهر مع جميع الذين مسوا الجثة أو الاشياء التي تتصل بها ليقوموا (بالاغتسال الثلاثي) الذي يدعى (طماشة) بعد أن يكون قد فلوا لثامهم، وألقوا بالأزهار التي كانت حول أنوفهم فوق القبر، ويعمدوا الأدوات التي استعملت في الحفر والدفن في الماء الجاري ويبدأ الجميع يتناول (اللوفاتي) (الطعام المقدس)[liii].

ويبدأ هذا (اللوفاني) في اللحظة الذي تنزل فيها الجثة إلى القبر، حيث تفرش الأرض بقطعة نظيفة من الخام أو الكتان الأبيض أو حصير من القصب ويوضع علبة، ارغفة من الخبز مسطحة، وسمك مشوي يهيأ من قبل الكاهن، وقطع من شحم الليه المشوي، وقطع من الجوز الهندي واللوز، والبندق، والرمان، والسفرجل، والبصل، والعنب، والملح يضاف إلى هذه الاطعمة الفواكه والخضر الموسمية، إذ يجلس المشاركون في هذه الوجبة الطقسية زوجاً زوجاً متقابلين، حيث يقتسم كل زوج متقابل الرغيف إلى نصفين ويأكلان بضع لقم ثم يشرب الجميع من إناء واحد ملئ من ماء النهر، وهم يرددون زوجاً بعد آخر ما يلي: الأول "حمداً لك وتباركت يا مولاي" الثاني: "لتكن الصحة لك". ويمر أناء الماء من زوج إلى زوج آخر، ويمد الجميع ايديهم اليمنى نحو الطعام، فيقوم الكاهن بتلاوة الدعاء التالي، والجالسون يرددون: "باسم الحياة، اسم مندا دهيبي منطوق عليك أيها الطعام السليم، أدن من صلاح الحياة ومن الأشياء الخيرة ... وقد بحثنا فوجدنا وتكلمنا واستمعنا بحضورك يا سيدي مندا دهيبي رب الشفاء، اغفر لها (الميت) خطاياه، وزلاته، وعثراته، ونقائضه، واغلاطه، واغفر لأولئك الذين هيئوا هذا الخبز وهذه المسخثة، وهذا الطعام السليم...".

وبعد الانتهاء من هذا (اللوفاني) الطعام، يتجمع الجميع حول القبر الذي يكون قد ملئ بالتراب وختم ويقولون: "تكلمت الحياة العظمى، وفتحت فاها ببهائها الخاص، ونورها وانتصارها، حمداً للحياة"[liv].

يتضح لنا مما سبق كثرت وتشعب الطقوس المندائية الخاصة بالموت ما بعد الموت، ووضوح عامل التأثير السومري والبابلي والفارسي على هذه الطقوس والمعتقدات.

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج والحقائق العلمية وهي:

١- إن دراسة تاريخ وأصل المندائين إنما هو جزء من دراسة تاريخ العراق القديم ولاسيما الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين ودراسة معتقداتهم هي دراسة للفكر الديني العراقي القديم.

٢- إن المندائية وطقوسها وشعائرها هي امتداد للديانات التي سبقتها على أرض بلاد الرافدين، وبالتحديد جنوب بلاد الرافدين، أي أنها مستمدة من الفكر السومري والبابلي القديم، إذ أن لهذه الطقوس الجنائزية اهمية خاصة، حيث ساد الاعتقاد عند المندائيين أنه إن لم تمارس هذه الطقوس من صلوات وتقديم القرابين والاطعمة، والصدقات، فإن أرواح الأموات سوف تخرج على هيئة أشباح لتؤذي الأحياء وتعكر حياتهم.

٣- إن نظرت المندائيين إلى الموت على أنه انتقال الروح إلى العالم الآخر بعد انفصالها عند الجسد، وهناك تحاسب الروح وتوزن اعمالها، هي نفس النظرة السومرية والبابلية للموت، وكذلك تقديسهم للماء باعتباره مصدر الحياة، إنما جاءت من تقديس سكان بلاد الرافدين للماء واعتباره أداة للتطهير.

٤- إن المندائيين يفضلون العيش بجوار المياه الجارية، ويبنون إلى جوارها بيوت العبادة (المندي)، لأن الطهارة هي الركن الأساسي في ديانتهم، ولا تتم طقوسهم الخاصة بالموت إلا بالتعميد بالمياه الجارية.

٥- إن كثرت الشعائر، والطقوس الجنائزية وتشعبها لدى المندائيين، وكثرت الصلوات المرافقة لهذه الطقوس والأدعية، وتعدد طلبات الرحمة، والغفران، كلها أمور حسب اعتقادهم تساعد الأرواح بعد الموت في الانتقال إلى العالم الثاني، واعتقادهم بخلود النفس وفناء الجسد.

٦- إن الديانة المندائية لا تزال مستمرة حتى وقتنا الحاضرة إلا أن تلك الطقوس الخاصة بالموت اجريت عليها بعض التبدلات اللازمة بحسب مناطق تواجدهم، لأنهم أدركوا خطورة الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى انقراضهم مع الوقت، فيما إذا بقوا متشبثين بتلك القوانين الدينية الصارمة، فبدأت هذه الديانة تواكب العصر وتقولب مفاهيمها الدينية.

الهوامش وتعليقات البحث:

[i]) Javier Teixidor, The kingdom of Adiabene and Hatra, Berytus, 1967, Vol, 27, p.57

[ii]) Edwin masao Yamauchi, "the present status of mandaean studies", journal of near Eastern Studies, No. 25, 1966, p. 92.

([iii]) دست ميسان: وظهرت في جنوب بلاد الرافدين كدويلة صغيرة اسمها (كرخية) و(كرخة)، وقد ورد اسمها في المصادر الآرامية، والعربية باسم (ميسان)، ونالت استقلالها، وانفصلت عن تبعية الدولة السلوقية التي اسسها سلوقس الاول سنة ١٨٧م، حتى اصبحت من الدويلات المهمة تجارياً وعسكرياً:

- Mucuch, R., The Orgins of the mandaeans and their script, journal of semitic studies, Vol, 16, number, 2, 1971, p.p 130-131.

[iv]) Edwin Masao, Op. cit., p.92.

([v]) عزيز سباهي، اصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، ط١، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ١٩٩٦، ص٨١.

[vi]) Mcl Wilson, The Gnostic Problem, Npwbray, London, 1980, p. 6.

[vii]) Yamauchi, m., Gnostics Ethics and Mandaean Origins, Harvard University press, 1970, p. 76.

([viii]) وهؤلاء هم الذين تحدث عنهم الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) واطلق عليهم اسم (المندائيين الحرانيين) وقد اختلفت طقوسهم وشعائرهم عن المندائيين الذين استقروا في بلاد الرافدين بحكم البيئة الجغرافية التي استقروا فيها، والاقوام الذين تعايشوا معهم، للمزيد ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص١٠٨-٢٣٠.

[ix]) Ethel stefana drower, The Mandaeans of Iraq and Iran, their cults, custom, magic legends and folklore, oxford (1937), p. 12.

([x]) عصام خلف الزهيري، الدين الاول، مدخل إلى الدين المندائي، الجزء الأول، بلا، ٢٠٠٧، ص١٤.

[xi]) Ethel Stefana, op. cit, p. 13.

[xii]) Ethel Stefana, and Macuch, R., Amandaic Dictionary, Oxford, 1963, p. 285.

([xiii]) للمزيد من التفاصيل حول التعميد، ونصوص التعميد، وخطواته ينظر: رافد الشيخ عبد الله، التعميد المندائي والصلاة المندائية، نصوص مترجمة عن الادب المندائي، مطبعة التايمس، بغداد، ١٩٨٨.

([xiv]) محمد نمر المدني، الصابئة المندائيون، العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم حتى اليوم، ط١، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٩، ص٣٣٩.
([xv]) عزيز سيامي، المصدر السابق، ص١٢٠.
([xvi]) فائز الحيدر، الحوار المتمدن، العدد ٢٣٤٨، لسنة ٢٠٠٨.
([xvii]) خزعل الماجدي، المثولوجيا المندائية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٠، ص٣٨.
([xviii]) الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة: نعيم بدوي وغضبان الرومي، دار المدى للثقافة والنشر، ط٢، دمشق، ٢٠٠٦، ص٧.
[xix]) Walter Wink, John 'The Baptist in the Cospel Tradition', Combridge, 1968, p.99.
([xx]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص٨.
([xxi]) الكنز ربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، الكتاب الأول، التسبيح الأول، التوحيد، ط٣، بغداد، ٢٠٠١، ص٧.
([xxii]) عزيز سباهي، المصدر السابق، ص٧٢ الهامش (٣١).
([xxiii]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص٥١- ص٥٥.
([xxiv]) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، ط٢، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠٠٧، ص٤٣.
([xxv]) نيقولا سيوفي، الصابئة عقائدهم وتقاليدهم، ترجمة: عارف ابو يوسف، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠١٠، ص٦٣.
([xxvi]) عزيز سباهي، المصدر السابق، ص١٣٨.
([xxvii]) الكنزا ربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ص٩.
[xxviii]) Ethel Stefana, op. cit, p. 11
([xxix]) انوش معناها (الكائن البشري – الإنسان)، واثرا معناها (كائن سماوي) وعليه من صياغة الاسم ان الذي يسكن هذا العالم يؤدي وظيفة أرضية – سماوية، للمزيد: عزيز سباهي، المصدر السابق، ص١٣٨.
[xxx]) Driver, The Judaean Scrolls, The problem and solution, Oxford, 1966, p. 107.
وكذلك ينظر: الليدي دراوور، المصدر السابق، ص٤١.
([xxxi]) كنزا ربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ص١٧.
([xxxii]) ناجية المراني، مفاهيم صابئة مندائية، (تاريخ، دين، لغة)، ط٢، مطبعة التايمز، بغداد، ١٩٨١، ص١٧.
([xxxiii]) كنزا ربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ص٢٣.
([xxxiv]) المصدر نفسه، ص٢٧.
([xxxv]) الحلالية: وهم اشخاص طاهرون مقدسون (كهنة) توكل إليهم مهمة القيام بطقوس الموت؛ الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ص٤٨.
([xxxvi]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٣.
([xxxvii]) المسخثة: وهي قداس يقام على روح الميت أو من هو يحكم الميت وتعني (الصعود) واتحاد روح ونفس المتوفي. الليدي دراوور، المصدر نفسه، ص٢٨٦.
([xxxviii]) كنزا ربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ص٢٩.
([xxxix]) ومن هذه الادعية ادعية (زهير ومزهر) و(كث قيمي اثري بشخناثون) و(ثيار كليل نهور) وكلها الغرض منها طلب الرحمة والشفاعة والغفران للشخص المريض وتسهيل عملية اخراج الروح من الجسد، للمزيد تنظر: الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٤.
([xl]) ناجية المراني، مفاهيم صابئية مندائية، المصدر السابق، ص٢٢.
([xli]) عبد الفتاح الزهيري، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين، العرب البائدة، مطبعة أركان، بغداد، ١٩٨٣، ص٦٣-٦٧.
([xlii]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٤.
([xliii]) عبد الرزاق الحسني، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ط٣، مطبعة العرفان، بلا، ١٩٦٣، ص١٣١.
([xliv]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٥.
([xlv]) محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ط١، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢، ص١١٩.
([xlvi]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٦.
([xlvii]) عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ص١٣٣.
([xlviii]) كنزا ربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ص٣٩.
([xlix]) عبد الفتاح الزهيري، المصدر السابق، ص١١٨.
([l]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٩؛ عزيز سباهي، المصدر السابق، ص٦٧.
([li]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٩٩.

([lii]) المصدر نفسه، ص٢٠٠؛ عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ١٣٥.
([liii]) عبد الفتاح الزهيري، المصدر السابق، ص١٣٠.
([liv]) الليدي دراوور، المصدر السابق، ص٢٠٤.